

دراسة مقارنة بين كتابات المصادر العربية والمراجع الفرنسية والعربية*

ولاية عقبة بن نافع الأولى على إفريقية والمغرب: سيتم التطرق في هذا الموضوع إلى ما ورد في أهم المصادر من معلومات عن ولاية عقبة ابن نافع الأولى على إفريقية والمغرب، لغرض مسحها ثم محاولة استنباط المفيد منها ويأتي بعد ذلك الإطلاع على الكتابات الفرنسية ومقارنتها بها، وأخيرا الإطلاع على الكتابات العربية والنظر فيما إذا كانت لها ميزة خاصة بها، والوصول أخيرا إلى تحديد الفوارق بين هذه وتلك.

يفيد المالكي أن معاوية بن أبي سفيان، ولّى على مصر معاوية بن حديج، "فأغزا إفريقية سنة 45هـ/665-666م وفتح جلولا، ثم أرسل إليه ابن أبي سفيان إمدادات أخرى، من مصر وبلاد الشام سنة 50هـ/670م، فغزا بها بترت، وبنى بناحية القرن "قبروانا". ولما رحل إلى الخليفة بالغنائم عزله عن مصر وولى عليها مسلمة بن مخلد الأنصاري... فوجه... [خالدا] بن ثابت الفهمي إلى إفريقية... سنة أربع وخمسين (54هـ/673-674م)... ثم عزله... وولى أبا المهاجر مولاه... سنة خمس وخمسين (55هـ/674-675م)... حارب [أهل] قرطاجنة... ثم انصرف فزل "بدكرور"، مدينة البربر، بالقرب من موضع "القبروان"... ثم إن معاوية... عزل مسلمة... وولى سعيد بن يزيد الأنصاري. فلما بلغ ذلك أبا المهاجر لحق بمولاه. ثم وجه سعيد بن يزيد عقبة بن نافع الفهري واليا على إفريقية بجيوش من قبله، عددهم عشرة آلاف، سنة سبع وخمسين (57هـ/676-677م). فزل حتى وصل "قفصة" فافتتحها، وافتتح ما مرّ به في طريقه، حتى وصل إلى موضع "القبروان"¹.

وقد وردت هذه المعلومات، كما هي تقريبا، في كتاب معالم الإيمان إلا أن ناقلها غير في آخرها بعض التفاصيل الهامة، في موضوع ولاية عقبة الأولى على إفريقية، حيث حدّد تاريخ تولية مسلمة بن مخلد لخالد بن ثابت بسنة 50هـ/673-674م الواردة في كتاب رياض النفوس، ولم يحدّد تاريخ عزله بأبي المهاجر دينار، في حين حدّده المالكي بسنة 55هـ/674-675م، بذل سنة 54هـ/673-674م الواردة في كتاب رياض النفوس، ولم يحدّد تاريخ عزله بأبي المهاجر دينار، في حين حدّده المالكي بسنة 55هـ/674-675م، وذكر الناقل المشار إليه أن أبا المهاجر، عندما وصل إفريقية، أخذ عقبة فحبسه وضيق عليه، وهو ما لم يرد في نص المالكي، ولم يتعرّض كذلك لتاريخ تعيين هذا الأخير على ولاية إفريقية ووصوله إليها.

وبعد إعلان الناقل المذكور عن انتهاء نقله لكلام المالكي، ينتقل إلى محمد بن يوسف الوراق، ويسجّل منه: أن عقبة بن نافع غزا إفريقية، غزوته الثانية، في سنة ست وأربعين (46هـ/666-667م)

*د. محمد بن عميرة - قسم التاريخ - كلية العلوم الانسانية والاجتماعية - جامعة الجزائر بوزريعة

وفيها اختطّ القبروان²، وكان ناقل هذه المعلومة الأخيرة قصد بنقلها ملء الفراغ، غير المعلن، الذي تركه عند نقله من كتاب رياض النفوس.

ويتمثل ذلك الفراغ، بالإضافة إلى عدم ذكر تاريخ تعيين أبي المهاجر على رأس ولاية إفريقية ووصوله إليها، في عدم الإشارة إلى محاربة هذا الأخير لقرطاجنة، وإلى نزوله بمدينة دكرور، وإلى عزل معاوية بن أبي سفيان لمسلمة بن مخلّد بسعيد بن يزيد الأنصاري، والتحاق أبي المهاجر بمولاه، عند سماعه خبر ذلك التغيير، وتعيين سعيد بن يزيد لعقبة على رأس ولاية إفريقية سنة 57هـ/676-677م.

والأسئلة التي تطرح نفسها، عند ملاحظة هذا النقص أو هذا الحذف غير المعلن، هي: ألا يعود عدم تسجيل تلك المعلومات إلى عدم تسليم الناقل بصحة مضمون ما جاء فيها؟ وهل المعلومات المنقولة من نفس النص بدت له أكثر مصداقية؟ المهم، في الأمر، أنّ النقطة التي تشكل محلّ خلاف، بين المؤلفين، هي التي تهم موضوعنا، وهي تمسّ ظروف وتاريخ ولاية عقبة الأولى على المغرب، ومن ثمّ يتطلب الأمر التوقف عندها، واستشارة المصادر فيها، أولاً بأول، بدءاً بالبلاذري (ت. 279هـ/892-893م) الذي يرى أن معاوية بن أبي سفيان، بعد توليته الخلافة، "ولى معاوية بن حديج السكوني مصر، فبعث في سنة خمسين (50هـ/670م) عقبة بن نافع... فغزاها واختطّها"²، ويروي في مكان آخر أن ابن حديج بعدما عيّن والياً على مصر، مكّان عبد الله بن عمرو بن العاص الذي تولّى مكان أبيه المتوفى سنة 42 أو 43هـ/662 أو 663 أو 664م، "أقام بها أربع سنين، ثم غزا فغنم. ثم قدم مصر فوجّه عقبة... ويقال بل ولّاه معاوية المغرب، فغزا إفريقية في عشرة آلاف من المسلمين. فافتتح إفريقية واختطّ قبروانها"³.

ويتفق المالكي (ت. 453هـ/1061-1062م)، في رواية له، مع هذا الاحتمال الأخير بقوله: "وذكر أن معاوية وجّه عقبة في جيش عظيم إلى إفريقية غازياً، فدخلها وافتتحها، ووضع السيف على من فيها من النصارى، وقال لأصحابه: "أرى لكم يا معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة تجعلونها عسكراً، وتكون عزّاً للإسلام إلى آخر الدهر"؛ فأجاب الناس ذلك..."⁴.

مع ملاحظة أنّ المالكي لم يحدّد تاريخ التوجيه الذي يتحدّث عنه لكن صاحب كتاب الاستبصار (عاش في النصف الثاني من القرن 6هـ/12م) يذكر أنه "في سنة سبع وأربعين (47هـ/668-667م)... ولى معاوية بن أبي سفيان عقبة... على إفريقية فافتتحها في عشرة آلاف... وأفنى من بها من النصارى، ثم قال: إني أرى إفريقية إذا دخلها إمام تحوّموا بالإسلام، فإذا خرج عنها، رجع كل من أجاب منهم عن دين الله، فهل لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون لكم عزّاً للأبد، فأجابه الناس..."⁵.

وقد وضع ابن عذاري المراكشي (عاش في أواخر القرن 7هـ/13م) تولية الخليفة معاوية لعقبة في سياق ما كان يجري في المنطقة من أحداث؛ فذكر أنّ الخليفة الأموي أخرج ابن حديج في غزوة إلى

إفريقية سنة 45هـ/665-666م، هزم فيه أسطولا بيزنطيا بقيادة البطريق نجفور، وهزم الروم بسوسة، وفتح مدينة جلولا: "وفي سنة 46هـ/667-666م... كان العامل على بلاد إفريقية، من قبل معاوية بن أبي سفيان، معاوية ابن حديج الكندي"⁶، أي أن ابن أبي سفيان عين ابن حديج عاملا على إفريقية فقط، دون مصر. و"في سنة 47هـ/668-667م عزل معاوية بن أبي سفيان عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر وولّاها... ابن حديج... فسار متوجها إليها من إفريقية"⁷.

وهذا يوحى بأن معاوية لم يجزؤ على تنحية عبد الله بن عمرو، عن مصر، إلا بعدما اقتطع عنها إفريقية للحد من قوته، ومحاصرته من الناحية الغربية، حتى لا تُرَاوِدَه نفسه إلى الانفصال عن الدولة، نظرا لما كان لوالده من دهاء ونفوذ بتلك الولاية.

وإذا سلّمنا بوقوع هذه التولية وأخذنا بعين الاعتبار التاريخ الذي حدّد به صاحب كتاب الاستبصار تولية ابن أبي سفيان لعقبة على إفريقية، وهو 47هـ/668-667م، يمكن استنتاج أن الخليفة أخذ قرارين في آن واحد: قراراً بتعيين ابن حديج على مصر، وقراراً بتعيين عقبة على إفريقية، لكن المشكل الذي يحول دون التسليم بصحة هذا الاستنتاج هو أن عقبة كان قريبا لابن العاص، وهو من أشهر قادته، وهذا من شأنه أن يدفع معاوية ابن أبي سفيان، إن كانت له تحوّفات فعلا، من عبد الله بن عمرو، أن يتفادى تعيينه على ولاية إفريقية حتى يتم حل مشكلة عبد الله وإبعاد خطره نهائيا، عن تلك المنطقة، كي يتفادى شبح تحالفهما ضده فيها.

وبالنسبة فإنّ تسلسل الأحداث يكون قد جرى وفق ما أكّده ابن عذارى بقوله: "وفي سنة 48هـ/668-669م كان العامل، على مصر وإفريقية، لمعاوية بن أبي سفيان، معاوية بن حديج... وفي سنة 50هـ/670م عزل معاوية بن أبي سفيان ابن حديج عن إفريقية، وأقرّه على ولاية مصر، ووجه إلى إفريقية عقبة بن نافع الفهري"⁸. فوصلها "في عشرة آلاف من المسلمين... ووضع السيف في أهلها، فأفنى من بها من النصارى..."⁹.

ويتفق عز الدين بن الأثير (ت. 630هـ/1232-1233م) مع ابن عذارى في تحديد تاريخ تولية ابن حديج على مصر، مكان عبد الله بن عمرو، بسنة 47هـ/668-667م¹⁰ لكنّه يذكر، في مكان آخر، أن الخليفة عزل ابن حديج عن مصر سنة 50هـ/670م، "ووليها مسلمة بن مخلد مع إفريقية، وكان معاوية بن أبي سفيان بعث قبل أن يولي مسلمة... عقبة بن نافع إلى إفريقية [فافتتحها]، وكان اختط قبراها"¹¹، ولم يحاول ابن الأثير هنا التطرّق إلى تاريخ حدوث هذا البعث، غير أنه أدخل الشك، فيما بعد، على صحة هذه المعلومة وراح يسندّها إلى أبي جعفر الطبري، مُعلّقاً على ذلك بقوله: "والذي ذكره أهل التاريخ من المغاربة، أن ولاية عقبة بن نافع إفريقية، كانت هذه السنة (أي سنة

دراسة مقارنة بين كتابات المصادر العربية والمراجع الفرنسية والعربية د. محمد بن عميرة

50هـ/670م)، وبني "القيروان"¹²، وهذا يعني أنه يريد أن يقول بأنهم أدري بشؤون منطقته، مما جعله يلخص أخبارهم بقوله: "إنّ معاوية بن أبي سفيان عزل... ابن حديج عن إفريقية، واستعمل عليها عقبة بن نافع الفهري، وكان مقيماً ببرقة وزويلة، مُدّ فتحها أيام عمرو بن العاص...؛ فلما استعمله معاوية سبّر إليه عشرة آلاف فارس، فدخل إفريقية، وانضاف إليهم من أسلم من البربر، فكثّر جمعه ووَضَعَ السيف في أهل البلاد، لأنّهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا، وأظهر بعضهم الإسلام؛ فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا، وارتد من أسلم، ثم رأى أن يتخذ مدينة...؛ فقصّد موضع "القيروان"¹³.

وبالنسبة للنويري (عاش في القرن 8هـ/14م) فإنّ تولية معاوية بن أبي سفيان لمعاوية بن حديج على إفريقية، كانت عندما أخرجه إليها في حملة سنة 45هـ/665-66م¹⁴، وهو يختلف في ذلك مع ابن عذارى الذي يجعلها سنة 46هـ/666-67م، كما أسلفنا، وينقل النويري أيضاً عن ابن الرقيق أنّ تكليف ابن حديج بولاية مصر، عوضاً عن إفريقية، كان بعد دخوله مصر، دون الإشارة إلى تاريخ هذا الدخول، وفيما عدا ذلك فإنّ النويري لا يختلف في أي شيء عن مضمون ما أورده ابن الأثير في شأن ولاية عقبة الأولى على إفريقية¹⁵.

والذي يوضحه ابن خلدون (ق. 8هـ/14م) أن معاوية بن أبي سفيان "بعث معاوية بن حديج من مصر، لإفتتاح إفريقية، سنة خمس وأربعين (45هـ/665-66م)، وبعث ملك الروم عساكره، لمدافعتهم في البحر...، وهزّمهم العرب بساحل أجم. وحاصروا جلّولاء وفتحوها، وقتل معاوية بن حديج إلى مصر؛ فوكلّ معاوية بن أبي سفيان على إفريقية، بعده، عقبة بن نافع، فاخبط القيروان"¹⁶، أي أن تولية عقبة على إفريقية تمت بعد عودته إلى مصر. وبالنسبة لابن تغري بردي (813-874هـ/1410-1470م) فإن عقبة "غزا... من قبل مسلمة بن مخلّد القيروان واخبط... مدينة القيروان وابتناها" سنة 58هـ/677-678م¹⁷.

والنتيجة التي يمكن التوصل إليها، بعد القيام بهذه الجولة في أهم المصادر التي تحدّثت عن عقبة بن نافع الفهري، تكمن في تولّد قناعة بأنّ تعيينه على رأس ولاية إفريقية، لأوّل مرّة، حدث سنة 50هـ/670-671م، أمّا الأحداث والفتوحات التي نُسبت إليه قبل هذا التاريخ، في سنوات 41هـ/661-662م أو 43/663-664 أو 46هـ/666-667م، فتدخل فيما كان له، عند إقامته "ببرقة وزويلة، مُدّ فتحها أيام عمرو بن العاص، ... (من) جهاد وفتح "على حدّ تعبير ابن الأثير"¹⁸، دون استبعاد توغلّه، أثناء ذلك أحياناً، في النواحي الشرقية لإفريقية لغرض استكشافها، وهذا ما يبرّر ذكر المؤرخين لاسمه، عند تناولهم الحديث في تلك المواضيع، وخلطهم بين الأحداث السابقة للتعيين، وأحداث التعيين نفسه، الذي تم فيه تأسيس مدينة القيروان.

ويتوقف Fournel H. عند موضوع ولاية مصر وعلاقتها بإفريقية، فيقول: "إن البلاذري يزعم، حسب الواقدي، أن معاوية بن حديج عزل عن ولاية مصر لترك المكان لمسلمة بن مخلد، لكن هذا خطأ بكل تأكيد، ما دمنّا رأينا... ابن حديج، كان قد مات، منذ ثلاث سنوات (سنة 52هـ)، وقد نقل ابن عذارى والنويري وابن خلدون نفس الرواية (assertion) التي اعتقد أنها خاطئة، في كلّ النقاط، لأنّ مسلمة، في رأيي، كان واليا لمصر منذ عام 47هـ، وبقي بها إلى عام 62هـ، ولهذا السبب، ولاشك، افترض بعض المؤلفين، خطأ، أنه كان يحكم مصر وإفريقية منذ عام 50هـ، وراحوا ينسبون إليه تأسيس القيروان الذي، إذا لم يكن قد تم على يديه، حسب هذا الافتراض، فقد يكون، على الأقل تم في عهد ولايته. والمؤرخون الذين سلّموا (admettent) بأن ابن حديج كان واليا على مصر، قبل مسلمة بن مخلد، يقولون بأنه احتفظ بهذه الولاية مدة أربع سنوات، وقد يكون هو الذي أرسل عقبة بن نافع إلى إفريقية، حسب رأيهم، لكن البلاذري نفسه يضيف أن هناك من يقول: إن معاوية ابن أبي سفيان هو الذي عين عقبة على ولاية المغرب، وابن خلدون يقول هذا بإيجاب (positivement)، وهنا تكمن الحقيقة، ويمكن رؤية تفسير الأحداث اللاحقة... ولتأييد حلّ مشكلتي يمكنني إلى حدّ ما، الاستناد إلى عبارات القيرواني، رغم خطأ تاريخه وتشويه أسمائه، تقريبا¹⁹.

والمفيد من كل هذا أن Fournel يريد القول: إنه يميل إلى الاعتقاد بأن الخليفة معاوية بن أبي سفيان هو الذي عين عقبة بن نافع على ولاية إفريقية عندما كان مسلمة بن مخلد يتولى مصر فيما بين سنتي 47 و62هـ، غير أن الحجج التي قدّمها هنا ليست مبنية على أسس متينة، إذ أنه من غير المؤكد أن وفاة ابن حديج كانت سنة 52هـ، مادامت المصادر تذكر أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن مصر، وولى عليها وعلى إفريقية مسلمة بن مخلد الأنصاري سنة 55هـ/675م²⁰، بل إن ابن تغري بردي نفسه الذي اعتمد عليه Fournel في تحديد تاريخ تلك الوفاة بسنة 52هـ يذكر، في مكان آخر، أن ابن حديج وفد على الخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة 58هـ/677-678م، مضيفاً أنّه: كان إذا قدم عليه "رُئيت له الطرق [بِقَابِ الرِّيحَان] تعظيماً لشأنه"²¹. كما أن المعلومات الواردة في شأن تولية مسلمة بن مخلد على مصر فيما بين سنتي 47 و62هـ، حسبما رأى Fournel غير بديهية، فالمصادر تتناقض كثيراً في حديثها عنّ تولي شؤون مصر في هذه الفترة²² وعنّ أصدر أوامره لعقبة بن نافع كي يقوم بحملته على إفريقية وولاه عليها، ومتى كان ذلك؟

ويحاول الكاتب الفرنسي المذكور تحديد تاريخ وقوع هذه الحملة اعتماداً على سطر أشار فيه ابن عذارى المراكشي إلى حملة بحرية، يكون عقبة قد قام بها، على رأس جيش مصري ضد الروم سنة 49هـ، ويقول: إن الأسطر الموالية له مفقودة في المخطوط، وهذه الفجوة، في رأيي، تمنع من معرفة

دراسة مقارنة بين كتابات المصادر العربية والمراجع الفرنسية والعربية د. محمد بن عميرة

النقطة التي يكون الروم قد تلقوا هجوما فيها. لكن النص سرعان ما يُستأنف، ويُبين لنا عقبة وهو يغزو (envahissant) إفريقية على رأس عشرة آلاف رجل، ويُقتل (massacrant) النصارى، ويحمل الخراب إلى بلادهم، وهنا أيضا تُعوزنا التفاصيل، كما يضيف Fournel، غير أنه يمكن تصوّر الذعر (Juger de la terreur) الكبير الذي تركت مآثر (exploits) عقبة انطباعه في القسطنطينية، عن طريق المبالغة التي تعكسها روايات المؤرخين البيزنطيين: إذ يجعل Cedrenus و Théophane و Anastase le bibliothécaire السنة الأولى من حكم قسطنطين الرابع (Constantine IV) المدعو pogonat، تاريخ حملة قام بها الشرقيون (Sarrasins) على إفريقية وأُسروا فيها ثمانين ألف شخص²³.

وبلاحظ Fournel أن السنة الأولى من حكم قسطنطين الرابع، تمتد من 15 يوليو 668م إلى 15 يوليو 669م، وأن أوّل من محرّم سنة 49هـ يوافق يوم الجمعة 9 فبراير 669م، مما يمكن، مع بعض الاحتمال، من جعل بداية حملة عقبة في الأشهر الخمسة الأولى من عام 49هـ/669-670م²⁴.

فإشارة هؤلاء المؤرخين البيزنطيين، إضافة إلى نصّ البيان، وإلى تاريخ تأسيس مدينة القيروان، وهو تأسيس لا يمكن أن يتم إلا بعد الانتصار التام، جعلت هذا المؤلف الفرنسي يستنتج أن الحملة العربية الثالثة، حملة عقبة بن نافع، بدأت عام 49هـ²⁵، علما أنه يسجل له حملتين على إفريقية: إحداهما سنة 46هـ، والأخرى سنة 49هـ.

وما ينبغي ملاحظته هنا أنّ نص ابن عذاري المشار إليه، حققه وراجعته ونشره، فيما بعد، سنة 1948، ج. س. كولان وإ. ليلي بروفنسيال فأصبح كاملا، وجاء فيه أنه «في سنة 49، غزا عقبة بن نافع الفهري الروم في البحر بأهل مصر، وفيها عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة... وفي سنة 50 من الهجرة عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حُديج عن إفريقية... ووجّه إلى إفريقية عقبة بن نافع الفهري... ووصل.. في عشرة آلاف من المسلمين، فافتتحها، ودخلها، ووضع السيف في أهلها، فأفنى من بها من النصارى»²⁶، ويتبين من هذا النص الخقق، الكامل، أن المعلومات الساقطة من المخطوط الذي استخدمه Fournel لا علاقة لها بالنقطة التي يكون الروم قد تلقوا فيها هجومه عليهم بل تناول فيها صاحبُه أحداثا أخرى وقعت في نفس السنة بأماكن أخرى من أراضي الخلافة الإسلامية، قبل أن ينتقل إلى الكلام عن الأحداث التي وقعت سنة 50، ومنها توجيه معاوية بن أبي سفيان لعقبة بن نافع إلى إفريقية، والملاحظ أن عبارة "ويحمل (عقبة) الخراب إلى بلادهم" غير واردة في نص ابن عذاري، ولا شك أن هدف Fournel من إضافتها هو العمل على تشويه صورة عقبة وأتباعه لقراءته، قدر المستطاع، ومع أن ابن تغري بردي يشاطر ابن عذاري الرأي في موضوع حملة 49هـ²⁷، لكن

سعد زغلول عبد الحميد يرى أن هناك خلطاً بين اسمي عقبة بن نافع الفهري وعقبة بن عامر الجهني، معتمداً في ذلك على ما ذكره الكندي من أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان عزل عقبة بن عامر بمسلمة بن مخلد الأنصاري عن ولاية مصر، وولى الأول قيادة بحريتها سنة 47هـ، وأمره أن يغزو في البحر بأهلها، وهذا ما يقوله ابن الأثير في كلامه عن أحداث سنة 48هـ رغم أنه تحدث، هو الآخر، عن قيام عقبة بن نافع، بحملة بحرية فيما ذكره عن أحداث 49هـ²⁸، ويبدو أن رأي زغلول هذا قريب من الصواب لسببين، على الأقل، أولهما أن عقبة بن نافع كان، دائماً، رجل المهام الصحراوية، ولم يُعرف عنه حتى ذلك الوقت أنه قام بأي نشاط بحري. وثانيهما أن الشخص الأنسب لقيادة أهل مصر في هذه المهمة، وفي هذا الظرف بالذات هو عقبة بن عامر، لأنه يعرفهم ويعرفونه، بحكم أنه كان يتولى شؤون بلادهم، وكان بإمكانه أن يجند منهم العدد الكافي لغزوته تلك، في حين لم يسجل التاريخ أن رجال عقبة كانوا من قطر واحد من أقطار الدولة الإسلامية.

وبناء على ما تقدم يمكن إسقاط احتمال قيام عقبة بن نافع بحملة بحرية سنة 49هـ من حساب Fournel، وبالتالي فإن النتائج التي بناها عليها باطلة ويبقى ما بناه منها على أساس ما قاله المؤرخون البيزنطيون، وحدة قائما ويقضي باحتمال بداية حملة عقبة بن نافع على إفريقية في الأشهر الخمسة الأولى من سنة 49هـ/669-670م، وفي تصوّر الكاتب الفرنسي المذكور فإن "الحملة العربية الثالثة" التي قادها عقبة ابن نافع، وُجّهت أساساً ضد الأهالي (indigènes)، لأن المعمّرين البيزنطيين، لم يعتنقوا الإسلام تفادياً لابتزاز، مع أنهم تكبدوا إغصابات المنتصرين. فبالأكيد، إذاً أن عقبة كان يقصد البربر، عندما اقترح على جنوده بناء مدينة قائلاً «عندما يدخل إمام إفريقية...»⁸². ويبدو هنا أن Fournel خفيّ عليه أن المسلمين قصدوا سكان إفريقية، بمن فيهم البربر والإغريق والإفرنج، وعرضوا الإسلام على الجميع، بنفس الطريقة لكن ما حصل هو أن الغرباء المستعمرين فرّوا إلى بلادهم، وبقي البربر سكان البلاد الأصليين في مناطقهم، وتفاعلوا بدرجات متفاوتة مع الفاتحين المسلمين، فلا مجال، إذاً للقول بأن البيزنطيين (الشجعان) صمدوا أو البربر (الجناء) خضعوا لابتزاز المسلمين مثلاً يوحى Fournel لقراءته.

ولم يحاول ليفي بروفنسال أن يناقش، مثل فورنيل، تاريخ ولاية عقبة الأولى على إفريقية وبلاد المغرب بل ذهب إلى القول بأن الحملة التي تمخض عنها تأسيس مدينة القيروان تمت سنة 50هـ/670م، وكان قصدها التّوغل نحو الغرب، ولم تستهدف، هي الأخرى، تدعيم نتائج الاحتلال العربي، "وربما كان تحت تصرف عقبة، في هذه الحملة، عشرة آلاف فارس، وقد يكون هذا العدد ارتفع شيئاً فشيئاً، بانضمام فرق بربرية اعتنقت الإسلام، إليها، وبفضل ذلك تمكنت من مواجهة

دراسة مقارنة بين كتابات المصادر العربية والمراجع الفرنسية والعربية د. محمد بن عميرة

البيزنطيين الذين صمدوا في مدن الساحل الإفريقي وكذلك البربر»²⁹. وإذا كان من الصعب هنا معرفة قصد هذا الكاتب من إدخال الشك على المعلومات التي أوردتها المصادر في تقديرها لعدد من كان معه من أصحابه، وفيمن انضم إليه من مسلمي البربر، فإن ما أثاره من صمود البيزنطيين بمدن الساحل، أثناء تلك الحملة غير مؤسس؛ لأن المصادر لا تشير إليه إطلاقاً.

ويميل H. Terrasse إلى اعتبار أن الغارات العربية استؤنفت على مُزاق (Byzacène) سنة 664م، وأن كل الغارات التي تحدّد النصوص تاريخها، ما بين 660 و664م/41 و43هـ مشكوك في أمرها كثيراً، وأن الجيش العربي تمكّن سنة 670م (50هـ) من الاستيلاء على الجنوب التونسي (الحالي)، بدون صعوبات، بقيادة عقبة بن نافع³⁰. وهذا بالضبط ما يُستشف من حديث المصادر حول هذا الموضوع، غير أن شكّه في وقوع غارات فيما بين سنتي 660 و664م يحتاج إلى تبرير، ما دامت بعض المصادر تؤكد وقوعها، إذ يبدو أن الإنسان لا يستطيع أن يذهب، في ظل المعلومات المتاحة، أكثر من القول: إن مجال تلك الغارات، ربما لم يمتد إلى إفريقية آنذاك كما أنه من الصعب موافقة E. Mercier فيما قاله من أن عقبة قد يكون سعى (briguer) للحصول على هذا المنصب، وأنه كان له مخطّطه الجاهز، وأن جاذبية قوية كانت تجذبه لإخضاع بلاد البربر، بوجه خاص³¹، لأن مثل هذا الكلام في التاريخ يحتاج إلى إقامة دليل، إلى توثيق، والمصادر لا تشير إلى ما يدّلي عليه؛ أبداً.

وقد وقع لبس كبير للجنرال Brémont فاعتبر أن "سيدي" عقبة وصل في جولته (sa randonnée) هذه، حتى المحيط الأطلسي "دون أن تعترضه مقاومة البربر، وقرّر أثناء عودته، تأسيس (créer) بادية (bédouinerie) مقرّاً للبدو، مثلما فعل المسلمون في بلاد الشام وبلاد الرّافدين... وقد سُمّيت البادية القيروان، المعسكر (le camps)"³².

علما أن وصول عقبة بن نافع، إلى المحيط الأطلسي، حدث بعد سنة 62هـ، في ولايته الثانية على بلاد المغرب، أمّا في ولايته الأولى هذه التي امتد وقتها من سنة 50 إلى 55هـ، فلم تذكر المصادر أنه تجاوز المنطقة التي أسس فيها مدينة القيروان، غرباً. وكلام الجنرال Brémont هنا يعطي، فكرة واضحة على الحد الذي كان يبلغه تدني مستوى الكتابة التاريخية للكثير من الكتاب الفرنسيين: معلومات خاطئة، وعبارات غير لائقة، تُشتّم فيها رائحة الغرور والاستهانة بالغير.

وقد بدا لـ: G. Marçais أن عقبة تصرف بمنهج أكبر، ومقاصد أوسع من سابقه، وإن الظرف لم يسبق له أن كان مناسباً أكثر للعرب: فالإمبراطور قنسطانز الثاني (Constant II) كان قد قُتل، قبل قليل، وكان خلفه قنسطنطين بروفونة (Constantin Progonat) قد وجّه نداءً إلى كل القوات البيزنطية، في الغرب، لمواجهة مغتصب ظهر بصقلية، تاركا فراغا كبيرا بإفريقية. ومن المؤكد

أن عقبة، أثناء تقدمه، عبر الجريد ومُراق (Byzacène) لم يلتق بالبيزنطيين فلا تصادّم للجيش ولا حصار للمدن. والقلاع المحروسة، ولا شك، من المدافعين كانت تسقط تلقائياً، والممتلكات كانت تُنهب، والسكان يقتلون أو يحولون إلى عبيد، إلا إذا أسرعوا في الدخول إلى الإسلام، وهذا الانتصار السهل في الظاهر، حُقق ضد بربر مسيحيين في أغلبهم، غير مهينين للمقاومة، ولم تحميهم الحاميات الإغريقية، إن كانت هناك حاميات. ولتدعيم هذا الغزو العسكري وتسهيل سيره، فيما بعد، أسس سيدي عقبة القيروان سنة 670م/50هـ³³.

وعند التأمل في هذا الكلام يتبين أن صاحبه حاول أن يلتزم، في بدايته، بالمعطيات التاريخية وأن يعالجه بعقلانية إلا أنه بمجرد أن خاض الحديث في موضوع السكان ترك الموضوعية جانبا وعكف على إبراز "الطابع المهمجي" للمسلمين و"التقصير الإغريقي" في حماية "الضحايا المساكين" البربر المسيحيين الضعفاء، بأسلوب لا تخفى فيه الصبغة العاطفية، بحيث اتبع فيه منهج بناء قبة من حبة، عن طريق الاستغلال المبالغ فيه لأصغر معلومة فيما يخدم الاتجاه الاستعماري لبني جلدته.

وبالنسبة لـ Caudel M. فإن عقبة هو الأكثر خبرة، تقريبا، مقارنة بجميع قادة الحملات السابقة لأنه كان يسكن برقة وزويلة، منذ الشروع في الغزو في عهد عمرو بن العاص³⁴. ومن برقة حيث كان يمكث (réside) تمكّن من متابعة الحملات التي لم يشارك فيها مباشرة، فأدهشه عجز جهوده وجهود رفقائه في السلاح، ورأى تحوّل تعاون البربر النشيط إلى عداء معلن (ouvert) تقريبا، مما صار يعرّض نجاح الحملات إلى خطر، وبالإمكان تحويل الإنسحاب إلى هزائم. ولاحظ عودة المقاتل المسلم بسرعة إلى الخلف، بعد تقسيم الغنائم، في كل مرة، دون أن يحمل هم المستقبل، تاركا بلداً ينبغي عليه إعادة احتلاله (reconquérir)، في حين كان بإمكانه الحفاظ عليه بسهولة، وقد استغرب منطقة العسكري من هذه الأخطاء، وسخط حماسه الديني من ارتداد البربر وتراجعات الإسلام. فهو يفكر في الإيمان (la foi) أولاً، يُريد معاقبة المرتدين ونشر العقيدة الإسلامية. ومن أجل ذلك ينبغي الاستقرار نهائياً في البلاد، وعدم التراجع أبداً، ولو بخطوة واحدة³⁵، فكان له هدف واضح ووسائل محدّدة: الهدف هو إخضاع إفريقية نهائياً، والوسائل هي الاستقرار في البلاد، ومن هناك نشر الإسلام بين أبنائها، بعد ذلك³⁶.

وللإستقرار يجب تثبيت العربي الذي يلتفت باستمرار إلى مصر، بتوفير مكان آمن له ولعائلته، وسُيُهيمن على المقاطعة جيش متحصّن بقوة، في موقع مختار بعناية، وينشر بسهولة، بين البربر، عقيدة يتقبلونها عن طيب خاطر، على ما يبدو، فإن لم يتقبلوها طوعا سيفرضها عليهم عقبة بالقوة. وفي البداية سُرّبههم بإبادة المرتدين الذين ستقع عليهم يده، إبادة جماعية، ذلك ببساطة هو مخطط الاختل³⁷.

وتبني الإشارة، بطبيعة الحال، إلى أن Caudel لم يقتبس كلامه هذا من مصادر تاريخية، وكل ما هناك أنه حاول أن يتقمص شخصية عقبة وي طرح نفسه بديلا عنه، كقائد عسكري عاش في القرن السابع الميلادي، اتخذ قرار تأسيس قاعدة حربية وعاصمة إقليمية كانت لها أهمية خاصة فيما بعد. والأسئلة التي تطرح نفسها عند محاولة التمعن في مثل هذه الأفكار هي: هل بإمكان أي إنسان أن يستشف أفكار غيره بهذه السهولة؟ وهل المدة الزمنية التي تفصل رجلين: عاش أحدهما في القرن السابع وعاش الآخر في القرن 19 الميلاديين، والظروف المادية المحيطة بهذا وذاك لا تؤثر سلبا على هذه المحاولة؟ وهل تجربتهما واحدة؟ وهل تكوينهما واحد؟ وهل ذكائهما واحد؟ إلخ... إلخ...

ومما لا شك فيه أن الإجابة بدقة عن هذه الأسئلة وغيرها لا تبدو من الأمور اليسيرة حتى بالنسبة لشخصين متعاصرين، إذ لا يستطيع أحدهما أن يفكر مثل الآخر تماما، اللهم إلا إذا كان خلقهما ناجما عن عملية استنساخ وحتى في هذه الحالة فإن هذا الأمر لم يتأكد بعد علميا. أما عند الإتيان بشخصين مختلفين في كل شيء تقريبا ومتباعدين في الزمن يائي عشر قرنا، فالأمر يصبح أكثر تعقيدا. تلك هي أهم الكتابات الفرنسية التي تعرضت لولاية عقبة بن نافع الأولى. وما يلاحظ عليها أنها فعلت ذلك من زوايا مختلفة، ولحسن الحظ أنها لم تكن وحدها في الميدان بل تناولته أيضا كتابات عربية كثيرة، ومن أبرزها كتابة حسين مؤنس الذي ذكر مرة، أن عقبة بن نافع قام بحملة صحراوية سنة 46هـ/666م، انطلاقا من مغمداس، قرب مدينة سرت، على ساحل طرابلس، ثم عاد إليها ليخرج في غزوة أخرى استولى فيها على قفصة، وجال في نواحي جريد تونس (الحالية)، وأنه فعل ذلك تحت إمرة معاوية بن حديج، قبل أن يعود معه إلى المشرق. وعندما عزل معاوية (بن أبي سفيان) مسلمة بن مخلد الأنصاري عن ولاية مصر والمغرب سنة 48هـ/668م، وولى عقبة ابن عامر الجهني مكانه، وجعل له قيادة البحر، رأى أن يفرد إفريقية وفتوح المغرب بعامل مستقل وقام بإسناد ذلك المنصب إلى عقبة بن نافع سنة 50هـ/670م، وبذلك كان ميلاد إفريقية والمغرب كقسم إداري مستقل بذاته³⁸. وانتهت مرحلة المحاولات الأولى لفتح المغرب ليبدأ دور الفتح الشامل المستقر³⁹.

ويذكر مؤنس، مرة أخرى، في مكان آخر، أنه "بعد عودة معاوية بن حديج من المغرب بخمس سنوات، أي سنة 40هـ/660م (الصحيح هو سنة 50هـ/670م) نجد (الخليفة) معاوية بن أبي سفيان يولي قيادة الفتوح في المغرب عقبة... ويُرسل له قوة عسكرية... لأن عقبة يُعتبر أكثر العرب معرفة بإفريقية وشؤونها، في ذلك الوقت، لطول خبرته بشؤونها، و... كانت لديه فكرة واضحة عن المغرب، وما ينبغي عمله لفتحه فتحا ثابتا⁴⁰. وهو "أول فاتح عربي يدخل هذه البلاد على رأس جيش، وفي ذهنه فكرة واضحة عما ينبغي عمله لتحويل أعمال الفتوح في إفريقية من غزوات، تروح وتعود

بغنائم فحسب، إلى فتوح منظّمة ترمي إلى إنشاء ولاية إفريقية، ومدّ حدود الإسلام غرباً، وإدخال البربر في الإسلام⁴¹.

وعندما وصله التكليف بإدارة الولاية الجديدة والأمر بالزحف عليها سنة 50هـ/670م "كان في نواحي زويلة، قرب قرآن... (و) من هناك... خرج بمن معه حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط، وهناك لقي القوة العسكرية التي أرسلها الخليفة معاوية بن أبي سفيان للعمل تحت إمرته فوصل غدامس، ومن هناك دخل إفريقية واتجه رأساً إلى قرب موقع سيطة، وكان قد قرّر إنشاء عاصمة أو مركز عسكري للمسلمين..."⁴².

واللافت عند مقارنة كلام مؤنس، في المرتين، أنه يختلف عن بعضه البعض حيث يفهم من الأولى أن تعيين عقبة على رأس ولاية إفريقية، وتكليفه بمهمة غزوها تمّ على يد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، عندما استقبله في صحبة معاوية بن حديج، ويفهم من الثانية أن عقبة الذي كان بنواحي زويلة، عندما كلفه الخليفة بتلك المهام، لم يسافر إلى المشرق بصحبة معاوية بن حديج، علماً أن المصادر لا تشير إلى سفر عقبة مع ابن حديج إلى المشرق، ولا إلى أي نشاط له في صفوفه ببلاد المغرب، ولا إلى مكان وجوده عندما كُلف بمهامه الجديدة، وهي تختلف فيمن أسندها إليه، كما تبين سابقاً⁴³.

وقد ربط سعد زغلول عبد الحميد بين إشارة المصادر إلى تسيير ابن حديج، لسرية انطلاقاً من معسكره في القرن أي المنطقة التي أقيم عليها، فيما بعد القيروان، فافتتحت السرية قفصة وقسطنطينية، ولاحظ أن المصادر لم تذكر قائدها، وبين إشارة تلك المصادر إلى قيام عقبة بن نافع بحملة على بلاد الجريد، بعد عودته من الحملة التي وصل فيها إلى كوار سنة 46هـ/666م، فاخترق فيها أرض مزانة، وأخضع كل واحداً قبل أن يفتح قفصة وكل منطقة قسطنطينية، ثم انصرف إلى القيروان. واستنتج زغلول من الحديث عن فتح قفصة في الروايتين أن الأمر يتعلق بحملة واحدة هي حملة عقبة بن نافع التي كانت فرعا من تلك التي قادها معاوية بن حُديج سنة 45هـ/665م⁴⁴. فإن ثبت صحة هذه الفرضية، يمكن القول، إذا، مثلما قال مؤنس: إن عقبة كان ينشط، آنذاك، تحت إمرة ابن حُديج، لكن هذا يبقى مجرد افتراض، مادام أنه لا يوجد ما يؤكد في المصادر العربية.

وحقّق لو تأكد أن حملة عقبة على قفصة وقسطنطينية كانت فرعا من حملة معاوية بن حديج، وأن الأوّل انضم للنّائي في معسكره بجوار جبل القرن كما يعتقد زغلول⁴⁵، فإن ذلك لا يتيح له أن يستنتج احتمال عودة عقبة مع ابن حديج إلى المشرق سنة 47هـ/667م، قبل أن يعهد إليه الخليفة معاوية بن أبي سفيان بولاية إفريقية سنة 50هـ/670م، وأن يبرر، بذلك، الخلط الذي وقع لبعض المصادر بين حملتي ابن حُديج وعقبة فحدّدت تاريخ غزو الأوّل لإفريقية بسنة 50هـ، وكذلك الخلط الذي وقع لبعضها

الآخر بين عقبة بن عامر الجهني وعقبة بن نافع الفهري؛ فأُسندت خطأ القيادة البحرية في مصر للثاني في حين أنها كانت للأول⁴⁶. كل هذه الاستنتاجات، إذا، لا تبدو منطقية، ولا مبرر، لأخذها بعين الاعتبار عند الحديث عن ولاية عقبة بن نافع الأولى على إفريقية وبلاد المغرب، ويؤيد زغلول ابن الأثير في أخذه بما ذكره المؤرخون المغاربة العارفين بتاريخ بلادهم من أن ولاية عقبة كانت في سنة 50هـ — مُعْتَقَدًا أن الخليفة معاوية عرف للرجل جهاده وحسن بلائه بالمغرب؛ فكافأه بأن جعل له قيادة الجيش العربي الإفريقي، بعد أن ظل قائدا مرؤوسا لمدة تزيد عن خمس وعشرين سنة. ومما أضافه زغلول أن الخليفة عندما استعمل عقبة على إفريقية، سَيَّر إليه عشرة آلاف فارس، وانضم إليه البربر الذين أسلموا، وأن عقبة كان عسكريا عنيفا في سياسته، بدليل قول ابن الأثير: إنه وضع السيف في أهل البلاد، لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا، وأظهر بعضهم الإسلام، فإذا عاد الأمير نكثوا، وارتدَّ من أسلم منهم. مما يعني أنه قام بجولة في البلاد التي سبق أن أخضعها من قبل، ويُمكن من القول: إنه قام آنذاك بإعادة إخضاع الجنوب التونسي (الحالي) عبر قصصة وقسطيلية، أي المنطقة التي سبق له وأن فتحها عقب جولاته الكبرى في صحروات وُدَّان وفَرَّان⁴⁷.

واللافت هنا أن القول بأن الخليفة كافأ عقبة اعترافا بجهاده وحسن بلائه غير بديهي لأن مثل هذا التكليف يتطلب توفر شروط معينة في الشخص المقترح أو المترشح إليها وليس مجرد مكافأة، ثم إن القول بأنه ظل قائدا مرؤوسا مدة تزيد عن خمس وعشرين سنة يحتاج إلى نقاش، مادامت المصادر التي تناولت الحديث عن نشاطه قبل ذلك لم تشر إليه إلا أثناء ولايتي عمرو بن العاص على مصر، واللتين امتدتا من 20 إلى 25هـ، ومن 38 إلى 43هـ، ومرة واحدة سنة 27هـ في ولاية عبد الله بن سعد، ومرة أخرى سنة 46هـ، أي أن مجموع السنوات التي ثبت له النشاط فيها لا تتجاوز اثني عشر سنة، أغلبها تحت إمرة عمرو بن العاص.

ثم إن اتهام الرجل بالعنف السياسي، بحجة ما قيل من أنه وضع السيف في أهل البلاد، بسبب ردِّهم عن الإسلام. يحتاج هو الآخر إلى توضيح، إذ أن جملة «وضع السيف في أهل البلاد» تعني أشياء كثيرة ولا تعني شيئا، في آن واحد، فهل يعني أنه كان يقتل من تقع عليه يده من رؤسائهم؟ فالمصادر لم تقدم أي دليل على ذلك. وهل تعني أنه فعل برؤسائهم ما فعله برؤساء وُدَّان وفَرَّان وكوَّار بجذع أذن بعضهم، وقطع إصبع البعض الآخر، وغير ذلك من الممارسات الهادفة إلى تأديبهم، لأنهم ارتدوا عن الإسلام؟ لا تذكر المصادر أي شيء من هذا أيضا. ثم إن أكثر ما عُرف عن شدَّته فيما بعد، أثناء القيام بحملته الكبرى التي وصل فيها إلى شاطئ المحيط الأطلسي، هو إعطاء أمر لكسيلة بذب شاة وسلخها، فاعتبر ذلك قسوة من الأمر وإهانة للمأمور. فهل تعني جملة "وضع السيف في أهل البلاد" أنه

قام بتصريف من هذا القبيل؟ وكل ما يمكن تأكيده أنه كان شديدا في معاملة المرتدين عن الإسلام، وهذا شيء طبيعي، عمل به الخلفاء والقادة المسلمون منذ عهد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه). وبالتالي فإن اتهام عقبة بن نافع بممارسة سياسة العنف ضد البربر أثناء حكمه يحتاج إلى إعادة نظر.

ويجعل عبد المنعم ماجد «نجاح حملات العرب في إفريقية سببا جعل معاوية (بن أبي سفيان) يسعى على إنشاء قاعدة للعسكر فيها... ويدعو.. أن معاوية قرر ذلك خوفا من بيزنطة، التي أخذت تعمل على استرداد نفوذها في إفريقية، فبعد قتل جرجير، قام بأمرها رجل آخر من الروم، ولكن بيزنطة تمكنت من طرده، فلجأ إلى (الخليفة) معاوية يحضه على غزو إفريقية. كذلك كان قنسطانز الثاني قد بعث بعسكره في البحر من القسطنطينية، ولكن العرب هزمهم، فذهب قنسطانز بنفسه إلى صقلية، رعا لبعيد حملة على بلاد المغرب ولكنه ما لبث أن قُتل سنة 48هـ/668م. كما أن أسطول العرب بقيادة معاوية بن حُديج شنّ على صقلية غارة قوية. وتُرجم أيضا أن نجاح (الخليفة) معاوية في شغل الروم في آسية الصغرى بالدفاع عن أنفسهم، جعله يشعر بحرية العمل في إفريقية.

وقد عهد معاوية (بن أبي سفيان) إلى عقبة بن نافع القيام بإنشاء هذه القاعدة... فذهب... على رأس عشرة آلاف في سنة 50هـ/670م ليخضع القبائل الثائرة مثل مزانة، فرع لواتة، وأعاد سيطرة المسلمين على المدن الساحلية في طرابلس ثم سار إلى فزان، ووصل حتى لامس بلاد السودان بفتح غدامس، ومنها اتجه إلى جنوب إفريقية، وهناك في أحد الأدوية البعيدة عن الساحل، التي لا تُدركها مراكب العدو، اختط قاعدة سماها "القيروان"⁴⁸.

بالنسبة لماجد، إذا؛ فإن صاحب فكرة تأسيس القيروان هو الخليفة معاوية بن أبي سفيان وليس عقبة بن نافع، وهو الذي أمر عقبة بإنشائها، وهذا كلام غير وارد في المصادر. كما لم تذكر المصادر أيضا أن عقبة أعاد سيطرة المسلمين على المناطق الساحلية لطرابلس. ثم إن ما تحدث عنه ماجد من إخصاع مزانة وفتح غدامس، والسير إلى فزان عبارة عن أحداث متفرقة وقعت في أوقات مختلفة (سنوات 40-41-42-43 و46هـ) قبل تعيين عقبة على رأس ولاية إفريقية سنة 50هـ، وليس من الصواب دمجها مع بعضها، واعتبارها أحداثا وقعت في حملة واحدة.

ولا يختلف موسى لقبال مع سابقه في القول بأن معاوية بن أبي سفيان هو الذي عين عقبة بن نافع واليا على إفريقية مضيفا أن ذلك بعد انتهاء مهمة سلفه ابن حُديج، وأنه "على عكس غيره من قادة الفتح، فقد سلك، في نفاذه إلى منطقة إفريقية، طريق الصحراء، عبر الواحات، وفي الرمال، وتجنب الطريق الساحلي الذي سلكه أغلب قادة الفتح... فأذعنت لدعوته قبائل لواتة، ومزانة، وأطرح جانباً الردة والعصيان، وافتتح قصور المنطقة، وتمكّن بعض فرسانه من السيطرة على مدينة

دراسة مقارنة بين كتابات المصادر العربية والمراجع الفرنسية والعربية د. محمد بن عميرة

غدامس، ومن قفصة التي استولى عليها، توجه نحو إقليم قسطنطينية أي منطق الجريد، وأمّ مدنها توزر؛ فأذعنت للطاعة... رجع مصعداً إلى إقليم الهضبة الوسطى، وفي منطقة قمونية وقف على جهود سلفه، في بناء معسكر القرن، فلم يعجبه كثيراً، وقال لأصحابه: "إن إفريقية إذا دخلها أمير..."⁴⁹. والذي يمكن ملاحظته على ما قاله لقبال أن تعيين عقبة على ولاية إفريقية جاء بعد انتهاء مهمة سلفه ابن حديج غير مؤكد، فالمصادر لم توضحه كما لم تتحدث عن إذعان قبائل لوانة ومزانة وطرحها الرّدة جانباً، في هذه الحملة بالذات بل سبق لها وأن فعلت ذلك في الغزوات التي قام بها عليها في ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر (38هـ-43هـ)، وليس أثناء حملة سنة 50هـ هذه.

وقد اقتصر شكري فيصل، في حديثه عن حملة عقبة بن نافع على إفريقية على تلخيص رواية ابن عبد الحكم التي تفيد أنه نزل سنة 46 بمدينة مغمداش في سرت (دون أن يحدد من أين قدم إليها ولا من كلفه بذلك) ومنها انطلق، في حملة استغرقت خمسة أشهر، على ودان وفزان، ثم عاد إلى معسكره بمغمداش، وانطلق منها، من جديد، نحو الغرب، بجانب الطريق الأعظم، إلى أرض مزانة حيث افتتح قصورها، وبعث خيلاً إلى غدامس، ولما عادت إليه قصد قفصة فافتحها، وافتتح قسطنطينية، ثم سار إلى القيروان، (أي إلى المكان الذي أسست فيه القيروان)⁵⁰.

وما يمكن قوله في مثل هذا الكلام أن اعتماد صاحبه فيه على مصدر واحد جعله مبنياً ومنقوصاً من معلومات كثيرة، حول الموضوع المعالج، وكان إمكانه لو وقّرها وأحسن استغلالها أن يتوصل إلى استنتاجات مفيدة.

وخلاصة ما يمكن ملاحظته على هذه الكتابات مجتمعة، الفرنسية منها والعربية، أن أصحابها عالجوا موضوع ولاية عقبة بن نافع الفهري الأولى على بلاد المغرب، من زوايا مختلفة، وأنهم لم يقوموا بعملية مسح كامل للمادة التاريخية في المصادر التي اهتمت به، وحاولوا تعويض النقص في المعلومات باستنتاجات خاصة، تحتاج غالبيتها إلى نقاش طويل، ولا يميّز العربية منها عن الفرنسية، بعد ترجمتها ترجمة دقيقة، إلا الأسلوب الذي تُبدي فيه الأولى نوعاً من الرفق بالعرب المسلمين في حين أن الثانية تغتيم كل ما أتيح لها من فرص لإبراز (وحشيتهم وجشعهم).

الهوامش:

- 1- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبادهم ونسألكم و...، نشره حسين مؤنس، القاهرة 1951، ج. 1، ص 17 فما بعدها من عدة صفحات.
- 2- الدبّاغ وابن ناجي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق إبراهيم شيوخ، ط. 2، القاهرة 1388هـ-1968م، ج. 1، ص 44 فما بعدها من عدة صفحات.
- 3- كتاب فوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة، ج. 1، ص 268.
- 4- نفس المصدر، ص 269.
- 5- رياض النفوس، ج. 1، ص 6.
- 6- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، نشره Fagnan E. تحت عنوان l'Afrique septentrionale au XIIe S.de notre ère, Constantine 1900، ص 3-4.
- 7- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س كولان وإ. ليفي يوفنسسال، ط. بيروت، ج. 1، ص 18.
- 8- نفسه.
- 9- المصدر السابق، ص 18-19.
- 10- نفس المصدر، ص 19.
- 11- الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط. 2، بيروت 1418هـ/1998م، ج. 3، ص 311.
- 12- نفس المصدر، ج. 3، ص 319.
- 13- نفس المصدر، ج. 3، ص 320.
- 14- الكامل، ج. 3، ص 320.
- 5-Conquête de l'Afrique septentrionale par les musulmans et histoire de ce pays sous les 1 émirs arabes, dans Ibn-Khaldoun- histoire des berbères et des dynasties musulmanes de l'Afri. Septentrionale, traduite à l'arabe par le baron de Slane, T. 1, Paris 1968, PP. 323- Conquête de l'Afrique, P. 327. انظر. 16-324.
- 17- كتاب العرب، ط. دار الكتاب اللبناني 1959، ج. 6، ص 216.
- 18- النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، ط. دار الكتاب المصرية، القاهرة 1383هـ/1962، ج. 1، ص 150.
- 19- الكامل في التاريخ، ج. 3، ص 320.
- 20-Les Berbères, études sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, Paris 1875, P. 159, note 5
- 21- انظر. الدبّاغ وابن ناجي: المصدر السابق، ج. 1، ص 46-47؛ ابن عذاري: البيان، 1، 21؛ ابن الأثير: الكامل، 3، ص 320-321، En-Noueiri, Conquête, P. 330
- 22- النجوم الزاهرة، 1، ص 151. قارن. الدبّاغ وابن ناجي: المصدر السابق، ص 45-46؛ ابن أبي الدينار: المؤنس في أخبار إفريقي وتونس، تحقيق وعليق محمد شمام، تونس، ص 28؛ الكندي: كتاب الولاة وكتاب القضاة، مهذباً ومصححاً بقلم رفن كسنت، بيروت 1908، ص 38 فما بعدها من عدة صفحات؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق، 1، 130 فما بعدها من عدة صفحات، المالكي: رياض، ص 19 فما بعدها؛ ابن عذاري: البيان، 1، ص 18؛ ابن الأثير: الكامل، 3، ص 311.
- 23- Les Berbères t. 2, PP. 151-152 -
- 24-Ibid, P. 151, note 5
- 25-Ibid P. 151
- 26- البيان، ص 19.

- 27- انظر. النجوم الزاهرة، 1، ص 138.
- 28- انظر. تاريخ المغرب العربي من الفتح على بداية عصر الاستقلال، ط. الإسكندرية 1995، ج. 1، ص 182.
- 29 -Les Berbères, T. 2, PP. 161-162
- 30-Histoire du Maroc, dès origines à l'établissement du protectorat français, éd. Atlantides- Casablanca 1947, P. 79 -
- 31- Encyclopédie de l'Islam, N^{elle} éd. Leiden- Paris 1936 T. III, art. Okba b. Nafi, P. 1040 -
- 32-Sidi Okba, ses expéditions dans l'extrême-Sud, Revue africaine, n° 231, 4^{ème} trimestre, 1988, P. 326 -
- 33-Berbères et Arabes, la Berberie est un pays européen, Payst-Paris, P.182 -
- 34-La Berberie musulmane et l'orient au moyen âge, Paris 1946, P. 31 -
- 35-Les premières invasions arabes dans l'Afrique du Nord, 21-78 h/641-697 j.c., P. 98 -
- 36-Op. cit., PP. 100-103
- 37-Ibid, P. 99
- 38-Ibid, P. 102
- 38- تاريخ المغرب وحضارته، ط. بيروت 1412هـ/1992م، مج. 1، ج. 1، ص 87-88.
- 39- نفس المرجع، ص 86.
- 40- مقدمة في تاريخ المغرب والأندلس، يناير 1980، ص 35.
- 41- نفسه.
- 42- نفسه.
- 43- انظر ما قبل، ص 1 فما بعدها.
- 44- تاريخ المغرب العربي، من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، ط. 1، الإسكندرية 1995، ج. 1، ص 181-182.
- 45- نفس المرجع، ص 182.
- 46- انظر. نفس المرجع، ص 182.
- 47- المرجع السابق، ص 183.
- 48- التاريخ السياسي للدولة العربية، ط. الثالثة، مكتبة الجامعة العربية 1966، ج 2، ص 57-58.
- 49- المغرب الإسلامي من بناء معسكر القرن، حتى انتهاء ثورات الخوارج، ط. الثانية، الجزائر 1981، ص 29.
- 50- حركة الفتح الإسلامي، في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، ص 163-164.